الفصل الثاني

الاغتراب في القرآن الكريم

- ❖ توطئة..
- ❖ ماهية الاغتراب وصيرورته..
- ❖ تداعيات الاغتراب.. اتهامات ومجابهات..
- ❖ الاغتراب.. معاناة نفسية..
- ❖ الاغتراب.. صبراً وتجلداً..

◘ توطئة..

شاءت حكمة الله -عز وجل- وهو أحكم الحاكمين، ابتعاث الرسل والأنبياء عليهم السلام المصطفين من البشر إلى أقوامهم عبر حقب زمنية متتالية، وبيئات مكانية متباينة. أفصح القرآن الكريم في بعض الآيات البينات عن غايات ذلك الابتعاث، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

واقتضى الله جل وعز إرسال الرسول بلسان قومه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد اقترن ذلك الابتعاث أو الإرسال بمعجزات إلهية، تصديقاً وإثباتاً للنبوة والرسالة والدعوة، ومن جنس ما برع فيه أقوامهم -فعلى سبيل المثال لا الحصر- كانت معجزة النبي موسى عليه السلام السحر المعجز إلهياً -أي البينة-، إبطالاً لما برع فيه سحرة فرعون دنيوياً - وشتان بينهما- وفي التنزيل العزيز تنويه بذلك، في قوله تعالى -على لسان فرعون- : ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧-٥٨].

وأمد الله جلت قدرته النبي عيسى عليه السلام بمعجزة الطب لبراعة قوم (بني إسرائيل) فيه، شاخصة معطياتها في تصوير الطين كهيئة الطير، وإبراء الأكمة والأبرص،

وإحياء الموتى بإذن الله عز وجل وذلك استنباطاً من قوله تعالى: -على لسان نبيه عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٤٩].

أما معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد الصادق الأمين ﷺ فماثلة في القرآن الكريم المنـــزل من عند الله -معجزة وإعجازاً- لتفاخر العرب يومئذ بفصاحتهم وبلاغتهم وبيانهم، فكان تحدياً لهم أن يأتوا بسورة من مثله، وما استطاعوا إسكاتاً لتخرصاتهم وشكوكهم الباطلة، ملتمسين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ثم زعموا باطلاً أن هذا القرآن الكريم مفترى، فتحداهم الله العلي العظـــيم أن يأتوا بمثل هذا الافتراء، قال تعـــالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وعلى الرغم من الابتعاث الإلهي المعجز الـــذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ﴾ [فصلت: ٤٢] المقترن بالسلوك المتسامي خلقاً وقـــولاً وفعـــلاً، إلا أن الأنبياء والرسل عليهم السلام غدوا غرباء وجوداً وتفرداً وبعـــداً وانـــسلاخاً، إزاء الوسط المشرك كثرة ومن منظوره، وذلك في فجر دعواتهم ورسالاتهم السماوية، الذي كان محتوى معتقده الباطل - كما ورد في آيات الذكر الحكـــيم ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] و﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحـــل: ٨٣] و﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنـــون: ٧٠]،

و﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]، و﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. و﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] و﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

ويقال الشيء نفسه عن الفئة القليلة المؤمنة الصابرة، التي خصّها الله في القرآن الكريم، ولاسيما المخصوصة من بني إسرائيل من بعد النبي موسى عليه السلام التي غلبت الفئة الكثيرة ضلالة وشركاً في قتالها إياها، بعد تولي غيرهم في ذلك الجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فضلاً عن قلة المسلمين التي عانت الغربة والاغتراب في فجر الإسلام، وقد بدت مستضعفة - في أرض مكة- ومستهدفة قتلاً من الكفار، فأواها الله في (المدينة) حفظاً لها، وأيدها بنصره (يوم بدر) رازقاً إياها بالغنائم حلالاً طيباً، وذلك ما يستشف من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] وغدت كذلك في آخره، مستدلين على هذه المعطيات من الحديث النبوي الشريف، إذ روي عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء**»[١].

أي أن الإسلام بدأ غريباً -في أول أمره- كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده، لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريباً كما كان حيث يقل المسلمون المؤثرون الآخرة على الدنيا فيصيرون كالغرباء، خلاف الكثرة المؤثرة الدنيا على الآخرة، فطوبى للغرباء أي الجنة[٢].

تلك هي معطيات الاغتراب الذي عاشه الأنبياء والرسل عليهم السلام من جهة، والقلة المؤمنة بهم من جهة أخرى.

وذلك ما يسوغ لنا ولوج (الاغتراب) منطلقاً لبيان ماهيته تارة، وتداعياته تارة أخرى، استشهاداً بآيات الذكر الحكيم في هذا لشأن.

□ ماهية الاغتراب وصيرورته:

يرى بعض الباحثين أن مصطلح الاغتراب هو محصلة الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية (Alienation) ومعناها العزلة أو الانسلاخ أو الانسلاب[٣] وهي تنزع إلى أصل لاتيني لكلمة: (Alenatare) المشتق من كلمة (Alienus) أي الانتماء إلى الآخر والتعلق به[٤].

ثم شاع تداوله في الدراسات النفسية والاجتماعية والفلسفية والدينية وغيرها، ولا تخلو المعاجم العربية من الإشارة إليه تحت جذر الفعل الثلاثي (غرب) المتشظي منه عدة معان من أبرزها ما ورد في بعض المعجمات وبما نصه: «**أغرب الرجل إذا جاء بأمر غريب... والخبر المُغرِب، الذي جاء غريباً حادثاً**»[٥] وقيل: «**الغَرْبُ: الذهاب والتنحي عن الناس، والغربة والغرْبُ: النوى والبعد**[٦]، **والغُرْبة والغُرْبُ: النزوح عن الوطن، والاغتراب والتغرُّب كذلك**»، ونوى غربة: بعيدة، وغَرْبة النوى: بعدها[٧].

أن ما يستنبط من هذه المعاني اللغوية أن الاغتراب كائن في من جاء بأمر غريب، بما يجعله بعيداً أو نائباً أو متغيباً عن مجتمعه.

وفي الفضاء الأدبي - النقدي نقرأ «**أن الشيء في غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب، كان أعجب وأبدع**»[٨] وذلك لقلته في ظل مخالفته العادة، حين لا يوجد مثله في زمنه، أو كونه عديم المثال قليله[٨]، أي أن الغريب هو المغاير للمألوف الشائع، ليغدو مثيراً للتعجب والدهشة، ولاسيما في البعد الفكري المصرح به أو الداعي إليه.

ومن منظور الدراسات النفسية يرى المختصون بها أن الاغتراب كامن في «**حالة الفرد السيكولوجية، بشعوره أنه غريب عن مجتمعه وثقافته، لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن ينفصل عن مجتمعه، ويعيش الاغتراب ويكابده، بصفته جزءاً من حياته، ومكوناً عن مكوناته النفسية والاجتماعية والوجودية**»[١٠].

أما المختصون بالدراسات الاجتماعية فيرون أن «**الاغتراب يعني كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه، لذلك يعد غريباً بينهم، مع شعوره بالانفصال عن الكل الاجتماعي جراء خروجه عن المعتقدات السائدة غير السليمة**»[١١].

وإذا كان المعنيون بالدراسات الفلسفية يعزون من عاش الاغتراب وعاناه إلى الفيلسوف اليوناني القديم (سقراط) ونظيره (أفلاطون) من بعده، بسبب دعوتهما إلى الثورة على الأوضاع البالية السائدة في المجتمع من جهة، ومواجهتهما صراعاً حاداً من أصحاب الفكر المحافظ الذين اتهموهما بإفساد عقول الناس لغرابة آرائهما عن آرائهم من جهة أخرى[١٢].

فحسبنا أن نعول على دعاة الرؤية الدينية، الذين ذهبوا إلى أن الاغتراب يعيشه ويكابده «الرجل الصالح في زمان فاسد، وقوم فاسدين، بشقيه (غربة الحال) أي الوجود الإنساني الاجتماعي، و(غربة الهمة) بطلبه الحق، ومغادرته الصفات البشرية، وتلبسه الصفات الإلهية[١٣].

لتبدو هذه الرؤية للاغتراب الأشد انطباقاً على الأنبياء والرسل عليهم السلام بوصفهم الأنموذج الرفيع لماهيته ومعطياته، ولاسيما في فجر دعواتهم ورسالاتهم السماوية التي بدت غريبة في مضامينها السامية، وصيّرتهم غرباء في أقوامهم المؤثرين العزوف عنها والمتناقضين معها، والمنكرين لها، والمشككين فيها، بالأقوال الفاسدة، والمجابهات الحاقدة، والاتهامات الباطلة، المفضية إلى معاناة نفسية يستشعرها من ذاق مرارة الاغتراب وتداعياته اجتماعياً ونفسياً، دون أن تثبط من عزيمته وإصراره وصبره على الرغم من ذلك.

❑ تداعيات الاغتراب.. اتهامات ومجابهات:

ولعل في مقدمة أعباء الاغتراب تلك المجابهات والاتهامات الشاخصة معطياتها بـــ(إنكار) هذا الجمع الضال أو ذاك من أن يكون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق دون مرافقته أو ملازمته (ملكاً) يكون معه يصدقه ويغدو مزية عليهم، وذلك قول عرب الجاهلية المشركين الباطل في الرسول الكريم محمد ﷺ، بدليل قوله تعالى - على لسانهم -: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. وفي السياق نفسه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

ولم يكتف ذلك الجمع الضال بالإنكار، إنما تجاوزوه إلى تكذيب الرسل عليهم السلام فيما كانوا يدعون إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فضلاً عن إفصاح الآيات البينات الأخر عن (تكذيب) أقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وأصحاب الإيكة والحجر والرس، وفرعون ذي الأوتاد، والأحزاب من بعدهم، وغيرهم للمرسلين[١٤]. وقد أجمل الله عز وجل ذلك التكذيب اتهاماً من لدن تلك الأقوام الضالة جميعاً في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤].

وما له صلة بالتكذيب أن المشركين من عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن الآيات البينات حين تطرق أسماعهم ما هي إلا (أساطير الأولين) أي الأكاذيب والأباطيل التي سطرها أو كتبها الأولون، دون إقرارهم أنها منزلة على النبي الأكرم (محمد) ﷺ من عند الله عز وجل[١٥].. بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

فضلاً عن الآيات البينات الأخر المتضمنة تلك المزاعم الباطلة نفسها التي تضمنتها سور [الأنعام: ٢٥] و[النحل: ٢٤] و[المؤمنون: ٨٣] و[النمل: ٦٨]، و[الأحقاف: ١٧] و[القلم: ١٥] و[المطففين: ١٣].

وهناك من تفاوت الوسط المشرك الضال في اتهامه لبعض الأنبياء والرسل عليهم السلام بالساحر تارة وبالمجنون تارة أخرى حقداً وحسداً من ذلك قول فرعون للنبي موسى عليه السلام المرسل إليه وإلى قومه بالحجة الواضحة، وقد أعرض عن الإيمان احتماء بجنوده واتباعه، قال تعالى بشأنه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٣٨- ٤٠].

ولم يقتصر ذلك الاتهام على الساحر والمجنون، إنما تجاوزه آخرون إلى قولهم (كاهناً)، منهم مشركو عرب الجاهلية الذين قالوا بحق خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ذلك، وقد حضه الله عز وجل أن يستمر بتذكيرهم بالعدول عن الباطل والدعوة إلى الحق المبين، ولا يرجع عنه، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

فضلاً عن قولهم شاعراً زوراً وبهتاناً للنبي الأكرم محمد ﷺ لتربصهم به حوادث الدهر، فيهلك كغيره من الشعراء حاشاه ﷺ من هذا الاتهام(١٦)، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠-٣١].

ومن مواقف مجابهة الأقوام الضالة، أن الملأ المشرك من قوم النبي نوح عليه السلام كانوا يرونه في ضلالة (ضد الهدى والرشاد)(١٧) حين كان يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، داحضاً زعمهم، ومؤكداً لهم أنه رسول رب العالمين، إشفاقاً منه عليهم من عذاب يوم عظيم، وذلك ما نوه به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦١].

أما الملأ الكافر من قوم (عاد)، فشاخصة معطيات اتهامهم (الباطل) للنبي هود عليه السلام المبعوث إليهم، والداعي إياهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له أنه -حاشاه- في سفاهة (أي نقيض الحِلم أو الجهل[18]، مع ظنهم الفاسد بتكذيب دعوته، متأملين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٦].

ومن مظاهر مجابهة أولئك المشركين إظهار (الاستهزاء) أي السخرية[19] بكل رسول أو نبي مبعوث إليهم، ومناط به الدعوة إلى نبذهم الشرك وذلك ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٧].

والسخرية المرادفة للاستهزاء، يقال: «**سخر منه.. سخريةً: هزء به**»[20] تقصدها الكافرون المؤثرون زينة الحياة الدنيا، في مجابهتهم المؤمنين الظافرين برضا الله عز وجل في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وهذه المجابهة بالسخرية لجأ إليها الظالمون من قوم النبي نوح عليه السلام أيضاً، حين كان يصنع الفلك بأمر ووحيّ من الله جلّت قدرته، نجاة له ولقومه المؤمنين برسالته[21]، مستوعبين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٧-٣٨].

ومن أفعال تلك المجابهات المشينة لجوء فرعون واتباعه إلى الضحك -استخفافاً- من الآيات التي جاء بها النبي موسى عليه السلام، رسولاً من رب العالمين في قولهم لهم، وذلك ما ورد في التنزيل العزيز في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

وذلك فعل العتاة من مشركي قريش الذين أجرموا إذ كانوا من المؤمنين يضحكون، مع تغامزهم في مرورهم بهم، بالإشارة إليهم بالجفن والحاجب -استهزاء-، ورجعوهم إلى أهلهم معجبين متفاخرين بما صنعوا بالمؤمنين القائلين فيهم -حين يرونهم- أنهم ضالون لتفردهم إيماناً بوحدانية الله عز وجل ونبوءة محمد ﷺ.

كما يستدل من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وغدا ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا وبالاً عليهم يوم القيامة، ببكائهم المستمر ألماً وحسرة وندماً، وهم في جهنم خالدين فيها، وذلك وعيد الله عز وجل لهم في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢].

و(المكر) بمعناه (احتيال في خفية وخديعة)[٢٢] آثره الملأ الكافر في بعض مجابهاته للأنبياء والرسل عليهم السلام من الشواهد على ذلك مكر (بني إسرائيل) المبيت والمستهدف به النبي عيسى عليه السلام إذ وكلوا به من يقتله غيلة وخفية.

وكان الله عز وجل عالماً بمكرهم هذا، بأن ألقى شبه عيسى عليه السلام على من قصد قتله فقتلوه، وتوفاه الله ورفعه إليه، محبطاً مكرهم السيء[٢٣]، وذلك ما تضمنه

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٥].

وعمدت أقوام ضالة إلى (الفرار) من الدعوات الهادفة إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور، على نحو ما كان من قوم النبي نوح عليه السلام إذ كانوا لدى سماعهم دعواته إلى التوحيد، - ليل نهار - اقتراناً بتضرعه إلى العلي القدير أن يغفر ذنوبهم، آثروا الفرار منه، بجعل أصابعهم في أذانهم كي لا يسمعوه، وتغطية رؤوسهم بثيابهم لئلا ينظروه، مصرين على الكفر، ومستكبرين على الإيمان، وحسبنا في تأكيد ذلك قوله تعالى على لسان النبي نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧].

و(الاستكبار والكبر) -بالكسر- والكبرياء، ألفاظ دلت معانيها على العظمة والتجبر[٢٤] كفراً وشركاً عند أولئك الذين لم تجد دعوات الحق صدى في نفوسهم، مع اقتران الاستكبار بالتكذيب تارة، وبالقتل تارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

و(اللغو) بمعناه اللغط والصياح في السياق القرآني لجأ إليه كفار قريش حين كان نبي الرحمة محمد ﷺ يتلو عليهم القرآن الكريم، هادفين من هذا اللغو التشويش على تلاوته لغرض نسيانه أو تبديله لتحقيق غلبتهم مع دعوتهم عدم سماعه، وهذا ما يستشف من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

❑ الاغتراب.. معاناة نفسية:

تلك هي أبرز المجابهات والاقتحامات الشاخصة معطياتها في الأقوال المنكرة، والآراء الفاسدة التي عمد إليها الملأ الكافر -من تلك الأقوام-، المؤثر الشرك والضلالة، والفساد والظلم، والجحود والإنكار، والبغي والعدوان، والمستكبر عن العبودية لله وحده لا شريك له، إيماناً وطاعة، رغبة ورهبة، خيراً وصلاحاً، المفضية إلى معاناة نفسية استشعرها الأنبياء والرسل (عليهم السلام)، المكرهون على (الاغتراب) والموصوفون به (اجتماعياً) تارة، والمتناقضون في دعواتهم ورسالاتهم مع الكثرة الباغية (كفراً) تارة ثانية، والصابرون على البلاء (معاناة) في عزيمة لا تلين، وإصرار لا يفتر تارة ثالثة. مستقصين مشاعر تلك المعاناة وذلك الصبر من آيات الذكر الحكيم في لمحات ذات مدلول.

ولعل في مقدمتها الشعور بـ(الحسرة) في معناها (التلهف والأعياء والندامة)[٢٥]، جراء من لا يستجيب لدعوة الحق المبين، ويصد عنها قاصداً متعمداً، وتلك الحسرة في النفس نتلمسها في قوله تعالى -مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

فضلاً عن الإحساس بـ(الحزن) نقيض الفرح والسرور[٢٦] الذي يستشعر به من لا يجد صدى لدعواه، ويسمع ما يغيظه ولا يسره، وذلك ما علمه رب العزة بما

كان يشعر به نبي الرحمة محمد ﷺ من حزن عند سماعه تكذيب الجاحدين من مشركي قريش لدعوته لهم إلى الهداية في العلن، خلاف كتمانهم صدقه في السر[٢٧]، وذلك ما نتأمله في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وفي أية بينة أخرى يحض الله عز وجل مخاطباً رسوله الكريم محمد ﷺ ألا يشعر بالحزن، ممن آثرت قلوبهم الكفر، وادعوا في أقوالهم الأيمان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وكان الإحساس بـ(الكرب) في معناه (الغمّ) الذي يأخذ بالنفس، «**يقال: أنه مكروب النفس**»[٢٨]، أحد ملامح تلك المعاناة النفسية، التي استشعرها النبي نوح عليه السلام في تضرعه المجاب إلى العلي القدير أن ينجيه وأهله من الكرب العظيم (الغرق)[٢٩]، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

ويقال الشيء نفسه عن النبيين موسى وهارون عليهما السلام اللذين مَنّ الله عليهما ونجاهما وقومهما من الكرب العظيم في دعوتهما (فرعون) المتجبر كفراً، والمؤذي نهجاً، والمستعبد للناس سلوكاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٦].

والغم في معناه (ظلمة وضيق وهمّ وشدائد الدهر)[٣٠] أحس به نبي الله يونس عليه السلام المعروف بذي النون وصاحب الحوت، حين غضب على قومه مما قاسى منهم، وذهب عنهم دون أن يأذن الله عز وجل له، فقضى حبسه في بطن الحوت، ما دعاه

إلى الاستغاثة برب العالمين مما هو فيه، فاستجاب له ربه ونجاه من ذلك الغم الذي ألم به في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ومن أوجه المعاناة النفسية (الضيق) من معانيه: «**سوء الحال، يقال: هو في ضيق من أمر أي ضيّق.. والضيّق: ما ضاق عنه صدرك**»[٣١]. وذلك ما استشعره نبينا محمد ﷺ من جراء أقوال المشركين الجارحة صدوداً عن الدعوة والهداية، فخاطبه رب العزة العالم بضيق صدره داعياً له بالتسبيح والسجود تبديداً لضيقه، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وضيق الصدر هذا كان العسر بعينه الذي أزاحه الله عز وجل عن كاهل نبيه محمد ﷺ مما عاناه من الكفار في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ١-٦].

وكان النبي موسى عليه السلام قد لبى نداء ربه بإتيانه القوم الظالمين قوم فرعون، متضرعاً إلى العلي القدير ألاّ يضيق صدره، ولا ينطلق لسانه، خشية تكذيبهم له في دعوته لهم، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء: ١٠-١٣].

وهذا التضرع نفسه بشرح الصدر أي سعته لتحمل الرسالة دعا به النبي موسى عليه السلام أيضاً ربه حين بعثه رسولاً إلى فرعون لتسهيل أمره في الإبلاغ، مع إطلاق لسانه في الإفهام، ملتمساً مؤازرة أخيه هارون عليه السلام له في هذا الشأن، بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه: ٢٤- ٣٥].

(والوهن) في معناه الشعور بـ«**الضعف في العمل والأمر**»[٣٢] ورد ذكره في بعض الآيات البينات، في معرض حضّ الله عز وجل المسلمين ألاّ يشعروا بالضعف في مقاتلة الكفار، وأن عانوا من ألم الجراح، فالكفار يعانون منه أيضاً، لكن للمسلمين أفضلية عليهم، لرجائهم النصر والثواب، ما لا يرجوه غيرهم[٣٣]، وذلك ما شاخصة معطياته في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وفي السياق نفسه نطالع في أحدى الآيات البينات تأكيد الله جلّت قدرته للمؤمنين أنهم الأعلون بالغلبة على الكافرين، مع نهيٍّ من أن ينتابهم شعور بالضعف، وإحساس بالحزن، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والضرّ أحد مشاعر الأذى الجسدي والنفسي، وفيه لغتان: بالفتح (ضد النفع) وبالضم (الهزال وسوء الحال)[٣٤] وكان المؤمنون قد لاقوا من الملأ الكافر أشد أنواع الضرر، فضلاً عن تحملهم (البأساء) المفصح معناها عن (الشدة في الحرب وغيرها)[٣٥]، تأكيداً لصدقهم في ما عاهدوا الله عليه، ما سوغ أن يصفهم الله عز وجل بالمتقين،

وذلك ما نتلمسه في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ووعد الله جل وعلا المؤمنين الذين لحقهم الضرر، والمجاهدين في سبيل الله في أموالهم وأنفسهم فضيلة وأجزى ثواباً من نظرائهم القاعدين، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

□ الاغتراب.. صبراً وجلداً:

تلك هي أبرز معاناة الأنبياء والرسل عليهم السلام من جهة، والمؤمنين معهم من جهة أخرى، ممن عانوا الاغتراب من الناحيتين النفسية والاجتماعية. حتى يمكن عدّ تلك المعاناة (بلاء) من العلي القدير ليميز الصابرين من غيرهم، ما ترتب عليه من مشاق جمة، موجزةً أبعاده في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ولم يكن ذلك البلاء وتلك المصيبة إلا من جراء أذى الضالين المشركين بالله -في الكلام السيئ والأفعال القبيحة- الموجه للمؤمنين المتوكلين على الله، والمؤثرين

الصبر على الأذى، كما في قوله تعالى -على لسان أولئك المؤمنين- : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وذلك الصبر على المصائب بشتى أنواعها ومضامينها حضّ الله عز وجل رسوله الكريم محمد ﷺ التحلي به، ضارباً به المثل في الرسل (عليهم السلام) في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٣٥].

فضلاً عن أمر رب العزة المؤمنين على مؤاثرة الصبر على المصائب، والإقامة على الجهاد كما في قولهم تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ويكفي أن يكون جزاء الله للمؤمنين المجاهدين الصابرين، الدرجة العليا من الجنة، مع ترحيب الملائكة بهم(٣٦)، في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٧٥].

ولا ندعي بعد ذلك كله أحاطتنا ما ترتب على ذلك الاغتراب من تداعيات بشقيها المجابهات والاهتمامات من جهة، ومكابدة معاناته التي استشعرت النفس بها من جهة أخرى، فضلاً عن تحمل ذلك بالصبر والمجالدة، مفسحين المجال لباحثين أفاضل أن يدلوا بدلوهم إكمالاً لجهدنا المتواضع في هذا البحث.

وفي الختام نقول إن الاغتراب إن عاشه المؤمن الصابر في سبيل إعلاء كلمة الحق، وإزهاق الباطل، ولقي من جرائه المصائب والبلاءات والمعاناة النفسية والآلام الجسدية، وصبر عليها، فهو فضل من الله عز وجل ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

هوامش الفصل الثاني ومصادره

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦: غرب.

(٢) المصدر نفسه: غرب.

(٣) المورد -قاموس إنكليزي- عربي، تأليف منير البعلبكي، بيروت، ١٩٨٥: ٣٧.

(٤) التقوى وقهر الاغتراب، د. لطيفة إبراهيم خضر، القاهرة، ٢٠١١: ٣٥.

(٥) أساس البلاغة، الزمخشري، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢: غرب.

(٦) كتاب العين، الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٨٢: (غرب): ٤/٤١٠.

(٧) لسان العرب: غرب.

(٨) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، ١٩٨٥: ١/٩٠.

(٩) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، د.ت: ١٥٢.

(١٠) التقوى وقهر الاغتراب: ٣٥.

(١١) الاغتراب النفسي والاجتماعي، وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد الجماعي، القاهرة، ٢٠٠٧: ٣٦.

(١٢) المصدر نفسه: ٣٩.

(١٣) المصدر نفسه: ٣٦.

(١٤) انظر: السور القرآنية وآياتها البينات: [الحج: ٤٢، الشعراء: ١٦٠، ١٤١، ١٢٣، ١٠٥]، [ص: ١٢]، [غافر: ٥]، [ق:١٢]، [القمر: ٩، ١٨].

(١٥) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، مصر، ١٩٥٤: ٩/١٤.

(١٦) انظر: تفسير الجلالين، لهذه الآية الكريمة، جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، بغداد، د.ت: ٦٩١.

(١٧) لسان العرب: ضلل.

(١٨) المصدر نفسه: سفه.

(١٩) أساس البلاغة: هزأ.

(٢٠) المصدر نفسه، سخر.

(٢١) انظر: تفسير الجلالين: ٢٨٦.

(٢٢) لسان العرب: مكر.

(٢٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، بيروت، د.ت: ٦١٥.

(٢٤) لسان العرب: كبر.

(٢٥) كتاب العين: ١٣٣/٣، وأساس البلاغة: حسر.

(٢٦) لسان العرب: حزن.

(٢٧) انظر: تفسير الجلالين: ١٦٧.

(٢٨) أساس البلاغة: كرب.

(٢٩) انظر: قصص الأنبياء: ٩٣.

(٣٠) لسان العرب: غمم.

(٣١) أساس البلاغة: ضيق.

(٣٢) كتاب العين: (وهن): ٩٢/٤.

(٣٣) انظر: تفسير الجلالين: ١٢٠.

(٣٤) لسان العرب: ضرر.

(٣٥) المصدر نفسه: بأس.

(٣٦) انظر: تفسير الجلالين: ٤٧٨.